٤٠ أبو البركات الخيوشانى فقيه من فارس احترمه السلطان

من بلاد إيران يجئ هذا الإمام الزاهد أبو البركات الخيوشانى.

ومن بلاد إيران التى هى فى الأصل بلاد فارس.. اعتنق الإسلام مؤمنون كثيرون فيما بعد، فجعل منهم أفذاذاً لا يُلحَقُون فى الإيمان أو فى العلم أو فى الدين أو حتى فى الدنيا. وإنها لإحدى سمات الإسلام وروائعه ألا يدخل بلداً من بلاد الله إلا ويثير كل نبوغها، ويحرك كل طاقاتها، ويخرج خبء عبقريتها.

ومن هؤلاء الإيرانيين الذين أنار الله بصيرتهم أبو البركات محمد بن موفق بن الحسن بن عبد الله المعروف بالخيوشانى. نسبة إلى موطنه الأصلى خيوشان، من قرى نيسابور بإيران.

كان هذا الرجل الصالح. إماماً جليلا، وَرِعًا تقيًّا. لم تر العيون فى زمانه أكثر منه علماً وزهداً، وإصراراً على الحق. هذه السمات جميعها هى التى جعلته يصمم على القضاء على المذهب الشيعى بمصر، وبالتالى إسقاط الخلافة الفاطمية لأسباب كثيرة، أهمها إحساسه ـ وهو المسلم السنى ـ أن هذا المذهب الشيعى بدأ يحيد عن جادة الحق.

وأول ما يستوقفنا فى سيرة هذا الإمام الورع تاريخ ميلاده، حيث تتفق معظم المصادر التى ذكرت هذا التاريخ على أنه فى سنة ٥١٦ هـ. فى قرية خيوشان، ويتعلم الفقه على المذهب الشافعى على يدى محمد بن يحيى، أكبر تلاميذ حجة الإسلام أبى حامد الغزالى، وحضر مصر عام ٥٦٥ هـ. وتوفى ودفن فيها عام ٥٨٧ هـ.

لكن الغريب فى سيرة هذا الإمام الصالح، أنه نشأ فى مجتمع تعتنق الأغلبية منه المذهب الشيعى، فى الوقت الذى يعتنق (هو) المذهب السنى ويتعصب له تعصباً ملك عليه كل أقطار نفسه. حتى أنه عزم وهو فى التاسعة والأربعين من عمره. أن يحارب بكل ما أوتى من علم ومحجة المذهب الشيعى الذى تفرضه الدولة الفاطمية. التى كانت وقتئذ مهيمنة على الحواضر الإسلامية بما فيها بلاده إيران.

وفى ذلك يقول المناوى فى كتابه «الكواكب الدرية فى تراجم السادة الصوفية» على لسان هذا الإمام الجليل الخبوشانى: «لابد أن أصعد إلى مصر وأزيل دولة الفاطميين» وبالفعل صعدها قبل سقوط الدولة الفاطمية على يدى صلاح الدين الأيوبى بسنتين، وأخذ منذ أن وطئت أقدامه أرض مصر فى محاربة الفاطميين، وكان من قوة الحجة والبيان، وعظم الشخصية وقوتها، والتفاف الناس من حوله وتجمعهم.. أن أخذت حاشية الخليفة الفاطمى تهادنه وتسترضيه.

ويسجل المناوى هذه الواقعة التاريخية فى كتابه «الكواكب الدرية» قائلا: «إنه لما جاء الإمام الخيوشانى، وصرَّح بسب الفاطميين أرسلوا إليه مالاً فرَدَّهُ إليهم، وضرب رسولهم على صدره ورأسه بقوه، حتى صارت عمامته حلقاً فى رقبته، وسب أميرهم سباً علنياً..».

وهذا يؤكد صدق ما وعد به قبل أن يغادر بلاده إيران متوجهاً إلى مصر من أنه سوف يعمل ما فى وسعه على زعزعة حكم الفاطميين الشيعة بها، حيث كان قلبه مغلقاً أمام كل تفاهم مع الشيعة. مما زعزع مكانتهم فى مصر.

وكما تذكر الدكتورة سعاد ماهر فى كتابها «مساجد مصر» قائلة: «لقد وجد صلاح الدين الأيوبى بغيته فى الإمام الخبوشانى عندما أراد تحويل الخطبة من خلفاء الفاطميين إلى خلفاء العباسيين أى من المذهب الشيعى إلى المذهب السنى، حيث تهيب صلاح الدين من هذا الإجراء فى بادئ الأمر، حتى وقف الإمام الخبوشانى أمام المنبر بعصاه وأمر الخطيب بذكر بنى العباس، ففعل. وهكذا نرى أن الإمام الخبوشانى وتكرر هذا الموقف حتى كان العامل الأول فى القضاء على المذهب الشيعى الإسماعيلى فى مصر، وبالتالى فى إسقاط الخلافة الفاطمية..»

صحيح أن دعوة الإمام الخيوشانى قد تحولت من الصبغة العقائدية ـ مناهضة مذهب دينى لمذهب دينى آخر ـ إلى صبغة سياسية. وصحيح أيضاً أن المستفيد فى هذا الصراع هو النظام السياسى فى المقام الأول، المتمثل فى حكم صلاح الدين الأيوبى، غير أن ذلك كان فى مصلحة مصر. بشهادة الكثيرين من المؤرخين، وذلك لجنوح الشيعة من ناحية، وعدم قبول كل المصريين لها من ناحية أخرى.

وطبيعى والأمر كذلك أن يحترم صلاح الدين الأيوبى هذا الإمام الجليل ويقدره، وربما كان يخشاه، حيث وقر فى نفسه، واستقر فى اعتقاده أنه إذا غضب عليه هذا الإمام الصالح ودَعا عليه فسوف يُصاب بمكروه. ولعله نوع من الاعتقاد كان يساور هذا السلطان العظيم الذى دانت له الممالك والأمم، قد يكون جانباً من شخصيته التى كانت تخشى الله وأولياءَهُ من الصالحين ومنهم هذا الرجل الصالح.

ومما يذكر فى هذا الصدد أنه لما خرج صلاح الدين الأيوبى لقتال الفرنجة عند بلدة الرملة بالشام، توجه إلى بيت الإمام الخيوشانى قاصداً وداعه، كما تعود أن يفعل فى كل أمر جعل يستعد القيام به. وفى هذا اللقاء. التمس الإمام الخيوشانى من صلاح الدين الأيوبى أن يبطل بعض المكوس التى كانت تحصل من الحجاج، فرفض صلاح الدين هذا الالتماس، فقال له الإمام الخيوشانى محتداً: «قُمْ لانَصَرَك الله»، ووكزه بعصاه بشدة، فوقعت قلنسوة السلطان صلاح الدين عن رأسه. والغريب أن هذا السلطان العظيم لم يتخذ منه موقفاً مشدداً، والأغرب أن المسلمين هُزِمُوا فى هذه المعركة، كنوع من الفأل غير الطيب.

كان الإمام الخيوشانى لا يخشى فى الله لومة لائم، لقد علم أن تقى الدين ابن شقيق صلاح الدين يبيع «المزر» وهو شراب من الذرة مسكر، شأنه شأن البيرة فى أيامنا، فكتب إلى السلطان صلاح الدين يطلب منه أن ينهى ابن أخيه عن بيع هذا الشراب. وهنا واجه السلطان صلاح الدين ابن أخيه قائلا: «يا بنى لا طاقة لنا بالشيخ الخيوشانى اذهب إليه وترضاه». وتنفيذاً لرغبة العم ذهب ابن الشقيق إلى الإمام الخيوشانى. وعند بابه أرسل إليه مَنْ يعلن عن حضوره واعتذاره قائلا: «تقى الدين ابن شقيق السلطان صلاح الدين يسلم عليكم» فرد الإمام الخيوشانى: «بل قل شقى الدين لا سَلَّم الله عليه» فقال الرسول: «انه يعتذر» فرد الخيوشانى

قائلا: «إنه يكذب» وامتنع عن مقابلته. فما كان من تقى الدين إلا أن امتنع عن بيع هذا الشراب خوفاً من غضب الخيوشانى.

ويذكر المناوى أن الخيوشانى عاش عمره لم يأكل لقمة واحدة من وقف الدولة. ولم يأخذ من مال الملوك درهماً واحداً، وعندما توفى كُفِّن فى كسائه الذى جاء به من خيوشان، موصياً أن يضم جثمانه إلى جثمان الإمام الشافعى تحت قبة واحدة بالقاهرة.

* * *